غـــــروب

للأستاذ شكري فيصل

«منذ عام حطمت أقلامي التي كنت ألقى بها الناس، وعشت بين أحزاني وأصدقائي ... هذه تعزوني وأولئك يعزونني ... واليوم أفيق على نحيب الذكرى ولوعة المصاب، وتحاملت على الصوت والأشياء ... فإلى الروح التي تسبح في أعلى عليين ... إلى روح خالي الذي علمني وأدبني ... هذه النفحات».

— ١ —

حين جزت ضفة النيل ... من هذه الخضرة الخضراء والبساتين المزهرة إلى الضفة الأخرى التي تستريح على ذراعيها الرمال الصفراء وتخفق على جنباتها الأمواج الزرق في «رأس البر» كنت في مثل ذهول المأخوذ وغيبوبة المنتشي ... كانت الساعة قرابة السادسة، والشمس تميل عن سمائها التي عاشت فيها، وتنحدر في شيء من البطء وفي كثير من الأسى نحو الأفق البعيد الذي يبسط لها جناحان من ضباب ونور.

ولم يكن في وسع الإنسان، إذ يتجرد من كل ما حوله من حركة الناس، أن يدرك أ كانت تلك ساعة من ساعات الصباح الفتي أو لحظة من لحظات المساء المتداعي ... فقد كانت هذه الأستار العريضة التي تلقيها السماء هنا وهناك علامة من علامات الظلمة، وكانت الشعاعات الرضية التي تند من الشمس شارة من شارات النور ... كان هناك هذا المزيج الذي يغشى بعضه بعضاً من الليل والنهار، وهذا الخليط المتشابك من الأخلاط والضباب، وكان في ذلك كله تناسق أصيل محبب.

— ٢ —

وألقيت أثقالي في الطريق إلى البحر ... وأدرت ظهري إلى الشارع الذي يطفح بالناس على ضفة النيل، ولم أحاول أن أستجيب إلى شيء مما حولي من جلبة الأشياء وحياة الأحياء، وخلفت من ورائي في نظرة عابرة كل هذه الحركة التي يتحرك بها هذا الشارع الأنيق وهذه الزينة التي يزدان بها ... ولم يكن من بأس أن أخالف من عادة الناس، هنا في رأس البر، حين يقسمون وقتهم قسمة متناصفة بين البحر والنهر ... فإذا كان الضحى جاءوا إلى البحر، وأخلد بعضهم إلى رماله واشتهى بعضهم بصارع أمواجه ... وإذا كان الأصيل جاءوا إلى النهر فتناثروا على شاطئه، عين إلى صفحته الهادئة، وعين إلى الصفحات الأسيلة التي لوحتها الشمس في الصباح وخففتها الأصباغ في الأصيل

وجزت طريقاً من هذه الطرق المعارضة وحدي ... كنت أشبه بالضال أو كذلك خيل إلي ... فقد كانت الأنظار التي تمر بي كأنما تتحدث إلي، بعضها يتحدث مشفقاً علي وبعضها هازئاً مني ... ولكني كنت أنا مشفقاً عليها دائماً رائياً لها أبداً. وإلا فكيف يخلي هؤلاء الناس بينهم وبين هذه اللحظات التي لا تنسى من عمر الشمس ... كيف يبيحون أن يجلبوا إليها أكثر النهار يستمدون منها القوة ويستجدون العافية ويتقلبون في مهاد من أشعتها الحلوة، حتى إذا غلبها على أمرها الفلك الدوار واعتنت تودع هذا الشاطئ انصرفوا عنها ... لم يكن في وداعها إلا ثلاثة: شاعر حالم، ومحب مستخف، وحارس كهل من حراس الشاطئ ينتظر موعد الصلاة؟!

ولكن ما ينفع العجب؟.. وهل هذا إلا صورة من وفاء الناس للناس، يتجاوز الأحياء إلى الأشياء.

... وانتهيت إلى البحر من أقرب طرقه — وكل الطرق إليه قريب — فأنا مع هذا القرص المتوهج الذي يبقى من الشمس على ميعاد، في كل يوم، لا آخذه إلا مكرها على إخلافه، ولا أنصرف عنه إلا أن يحول بيني وبينه ما لا قبل لي بدفعه، فإن فاتني أن أراه فشت معه أتخيله، حتى تطويه لنة الأفق في لحن متساوق من الألوان، حزين.

— ٣ —

ورأيتني أشهد الشمس الهاوية في استغراق، وفي عيني دمع ثر، كأنما استعار من الموج تدفقه ... ولم أحس لهذه الصورة التي أراها كل يوم مثل الذي أحسسته لها اليوم ... كنت أحس بعض هذا الاستغراق غير أني لم أكن أمثل ذاتي ... كان حاجز رقيق أو سفيق يحول بيني وبين الفناء ويبقى علي شيئاً من كياني، ولكني في هذه اللحظات لم أعرف أين أنا ومن أنا فقد اشتملني جناح دفيق رقيق، وطار بي في هذا الأفق الموغل المترامي